

**الظواهر الأسلوبية عند الشعراء الزهّاد
(الإبيري والسنائي أنموذجين)
(دراسة فنية مقارنة) ***

د. عباس يداللهي فارساني **

* تاريخ التسليم: 2015 / 2 / 3م، تاريخ القبول: 2015 / 5 / 3م.
** أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة الشهيد چمران/ الأهواز/ إيران.

**Structure in the Poetry of the Ascetic poets
(A Case study of poetries of Sana'i and Elbiri)
A comparative Study**

Abstract:

The present study attempts to investigate Structure aspects of ascetic poetry of Elibri and Sana'i within comparative literature framework. These two poets have used aspects of structural phenomena as a tool to strengthen the religious values in the addressees' mind. Therefore, these aspects have a significant role in revealing the poets' thoughts and internal feelings. These factors have been originated from the realities of their environment. This study deals with the most important and the most common aspects of these poetries. The most important ones include composition sentences (imperatives, negatives, questions, exclamations, and requests) repetitions and oppositions. Undoubtedly, stylistic phenomena have been out of their primary meaning and they have had secondary meanings such as encouragement, frightening, advising, and sometimes forgiving.

Keywords: aspects of structure, ascetic poetry, advice and sermon, religious and ethical values, addressees

ملخص:

تشكل هذه الدراسة محاولة للوقوف على الظواهر الأسلوبية للشعر الزهدي عند الشاعرين الإلبيري والسنائي في إطار الأدب المقارن. لقد وظف هذان الشاعران هذه الظواهر الأسلوبية كأداة لترسيخ الأسس السامية والثوابت الدينية لدى المتلقي واستتقت معظم مصادرها من الواقع المحيط بهما، فأدت دوراً هاماً وبارزاً في الإفصاح عن الهواجس والمشاعر النفسية. تطرقنا في بحثنا هذا إلى دراسة أكثر هذه الظواهر شيوعاً ودوراناً لديهما فمن أهمها الأساليب الإنشائية (كالأمر والنهي، الاستفهام، النداء والتمني، والتكرار والتقابل). مما لا ريب فيه أن هذه الظواهر خرجت في معظم الأحيان عن معناها الأصلي لتحمل معاني ثانوية كالحث، التحذير، إساءة النصيح، الموعظة والتنبيه. الكلمات المفتاحية: الظواهر الأسلوبية، شعر الزهد، النصيح والموعظة، القيم الخلقية والدينية، المتلقي.

خاصة في الدراسات البلاغية منذ قديم الأزمنة وهذا مما أكده البلاغيون من القدامى والمحدثين رغم أنهم لم يوافقوا على تعريف محدد ومعين من الأسلوب، فلا مشادة أن هناك صلة وثيقة بين الأسلوب والمخزون الفكري والثقافي لدى الكاتب أو الشاعر مما يشحن الآثار بالطاقات التعبيرية «فحذق الأديب والشاعر يظهر في مقدرته الفائقة على صياغة اللغة صياغة بصرية واعية، تصف كل خاطرة من خواطر نفسه، وتفصح عن كل فكرة تومض كيانه أو شعور يختلج في مطاويه وعبقورية اللغة تكمن في مرونتها، وطواعيتها وإفادتها دقيق المعاني، بوجوه وفنون الصياغة فتصف بهيئة الكلمة وتشير بخصوصية التركيب» (أبوموسى، 1980م، 45).

أسباب اختيار الموضوع

تشكل هذه الدراسة محاولة للوقوف على أهم الظواهر الأسلوبية وأكثرها دوراً في شعر أبي إسحاق الإلبيري (الشاعر الأندلسي الزاهد) والسنائي (من رواد فكرة الزهد في الأدب الفارسي). بما أن هذين الشعارين استخدمتا الظواهر الأسلوبية كأداة طيبة للتعبير عن المواقف الزهدية وما يمت بصلة إلى النزعة الزهدية في الأدب بين العربي والفارسي، فحاولنا في هذا البحث أن نتطرق إلى دراسة هذه الظواهر ومدى حضورها في شعرهما.

فلا مشادة أن لهذه الظواهر دوراً هاماً وبارزاً في تحقيق غاية الشعارين في الشعر الزهدي وتعميق فكرة الزهد وأصدائها على المستوى الفكري والثقافي والحضاري وانعكاسها على المستوى السلوكي، ومن أهم هذه الظواهر، الأساليب الإنشائية (الأمر والنهي، الاستفهام، النداء، والتمني)، التكرار والتقابل.

الدراسات السابقة

لقد اهتم الباحثون بشعر الإلبيري والسنائي من جوانب مختلفة، غير أنهم لم يدرسوا الظواهر الأسلوبية وما تحمل من المعاني والمشاعر لديهما خاصة في إطار الأدب المقارن، فلم تجر دراسة مستقلة قائمة بذاتها حتى الآن في شعر هذين الشعارين من منظور توظيف الظواهر الأسلوبية ومجالاتها. تطرق أحد الباحثين إلى دراسة شعرهما من منظور ثنائيات الزهد ومعانيها لدى الشعارين ونشر بحثاً تحت عنوان «المضامين الزهدية في شعر السنائي الغزنوي وأبي إسحاق الإلبيري» المنشور بمجلة «دراسات في الأدب المقارن» بجامعة تربيت مدرّس.

لكن الباحث لم يتطرق في بحثه هذا إلى دراسة الظواهر الأسلوبية لدى الشعارين واكتفى بذكر محاور الزهد والمقارنة بين الشعارين في الموضوعات الزهدية ومدى حضورها لدى الشعارين.

منهج البحث

اعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي وذلك لما يتطلبه الموضوع من بيان الظواهر الأسلوبية وما يتمحور شعر هذين الشعارين حولها وما تحمل من المعاني والموضوعات المتباينة داخل النسيج الشعري.

تهييد:

تعد الظواهر الأسلوبية في الأدب العربي من أقدم الموضوعات التي دارت على ألسنة البلاغيين والنقاد منذ أقدم العصور وتطرقوا إليها بغية العثور على المصادر التي تضيء على الآثار والمصنفات رونقاً وبهاء وطلاوة رغم «عدم وجود - حتى الآن - تعريف واف ومحدد للأسلوب يحمل النفس على الاقتناع والرضا» (أبو حميدة، 2000م، 7).

استخدمت كلمة الأسلوب في اللغة العربية بمعنى السطر من النخيل وكل طريق ممتد هو أسلوب، ويقال: الأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب (ابن منظور، 1979م، مج6، مادة سلب)، وأورده صاحب قاموس المحيط قائلاً: سلكت أسلوب فلان في كذا: طريقه ومذهبه ويقال: أخذنا في أساليب من القول: فنون متنوعة (الفيروز آبادي، 1980م، مج3، مادة سلب).

يعد الأسلوب من الموضوعات البلاغية التي تنم عن مقدرة البلاغيين على الكشف عن الجماليات المكونة للخطاب الشعري حيث

تقيم صلات وطيدة بين النحو العربي من حيث هو من أهم الآليات والوسائل لدراسة الجمل وبين إنتاج المعنى داخل النسيج الأدبي.

لقد كشف عبدالقاهر الجرجاني لأول مرة مفهوم الأسلوب حيث ذهب إلى أن كل أسلوب يتضمن معنى خاصاً لا يتجاوز المعاني الأخرى، فاعتبر الأسلوب لوناً من النظم فمائل بينهما من حيث أنهما يكونان تنوعاً لغوياً خاصاً لدى كل مبدع ينتج عن وعي واختيار (الجرجاني، 1992م، 361)، ثم ذهب ابن الأثير مذهب الجرجاني وربط بين الأسلوب وشخصية الكاتب أو الشاعر، ومقدرته الفنية في عرض الفكرة بأسلوب مميز وطريقة متفردة (ابن الأثير، 1990م، مج2، 382).

فمن الواضح أن «مفهوم الأسلوب في تراثنا القديم قد ارتبط بعدة مسارات، فهو يدل على طريق العرب في أداء المعنى، أي الخواص التعبيرية التي تتناسب وكيفية أداء المعنى المقصود، وكيف أن هذه الخواص هي التي تبرز الدلالة التي يهدف إليها الأدب» (عبدالمطلب، 1993م، 17).

إذا ما أمعنا النظر في مواقف البلاغيين المحدثين نجد أنهم أدلوا بدلوهم في هذا المجال وما تركوا موقفاً إلا طرّفوه. فذهب أحمد الشايب إلى أن الأسلوب هو «طريقة الكتاب أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ أو تأليفها للتعبير عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه» (الشايب، 1976م، 44)، وقال أحمد درويش بأن الأسلوب «إضافة قواعد تصنيفية أخرى إلى جانب القواعد البلاغية العامة تسهل تقسيم الكلام بحسب مراتبه الفنية» (الدرويش، 1998م، 152).

فالذي لا شك فيه أن الأسلوب ضرب جذوره في الأدب

نظرة عابرة إلى حياة الإبيري والسنائي

يعد الإبيري وأبوالمجد مجدود بن آدم الملقّب بـ «السنائي» من أهمّ رواد الزهد اللذين عاشا فترة من حياتهما في البذخ والترف والمجون، فلم يكتربا بما جاء به الدين الحنيف من التعاليم السمة، ثم بعد مدة انصرفا من تلك الحياة الماجنة وأنابا وتركيا تلك الحياة المليئة بالفسق والفجور.

يعد إبراهيم بن مسعود التحبيبي الغرناطي من أبرز وأهمّ الشعراء الأندلسيين الذي نُفي إلى إلبيرة فأصبح يعرف بالإبيري. ولد الشاعر نحو سنة 375 للهجرة وترجّل عن سهوة الحياة سنة 478 للهجرة. لقد عاصر الشاعر طيلة الحياة دولة العامريين بالأندلس ودولة الطوائف وذاق مرّ الحياة وحلوها ورأى تقلبات الدهر وما ألمّ بالملوك من نوائب الدهر وحدثانه مما ضافره على تكوين مخزونه الثقافي والفكري.

ليس الإبيري شاعراً فحسب، بل كان فقيهاً ورعاً وزاهداً نبذ الدنيا وملذاتها. وتعود شهرته إلى قصيدته المشهورة في التحريض على البطش باليهود حينما ازداد طغيانهم. اتخذ الشاعر الشعر وسيلة طيبة للتعبير عن آرائه الزهدية وبث مخزونه الفكري والثقافي. لقد ساهمت الأسباب المختلفة في سوق الشاعر مساق التعبير عن الشعر الزهدي، فمنها التدهور في الظروف العقيدية والفكرية، انتشار اللهو والفسق في المجتمع الأندلسي وانغماس الملوك في البذخ والترف والإقبال العارم للناس على تثمين المال والعقار والتأنيق في الملابس والأطعمة مما مهّد أرضية مناسبة لشيوع المغريات والملذات الجسدية.

يعد أبوالمجد مجدود بن آدم الملقّب بـ «السنائي» الذي ولد في نهاية القرن الخامس للهجرة وبداية القرن السادس الهجري أحد الوجوه المتألقة في الأدب الفارسي الذي جعل شعره الزهدي بمثابة أداة ناجعة لإشاعة فكرة الزهد وأسسها الديني في المجتمع الذي ضجّ بالخلاعة والمجون ونسيان الأوامر والنواهي الدينية. اتصل الشاعر في بداية الحياة ببلاط الحكام والوزراء وجرّب طيلة حياته الدولة الغزنوية وحكامها، فاتصل بها بغية العثور على ذبوع الصيت والتمتع من الصلات والجوائز. انكبّ الشاعر حرّ يصاً على نعيم الدنيا الزائل حتى ملّ منها في الأربعين من عمره، فترك هذه الحياة العابثة وأقبل بقية العمر على الزهد والنسك وخصّص بقية العمر في الطاعة والإنابة والاستغفار رجاء الرحمة والغفران. وكان لهذه اليقظة الروحية دور بارز وهامّ في تقلّبه الروحي والنفسي (زرين كوب، 1378، 161) حيث جعلته يبحث عن ضالته المنشودة في التعاليم الدينية السمة.

يعدّ الشاعر الحكيم من الوجوه المتألقة في الأدب الفارسي الذي جمع بين العرفان والحكمة وامتزج بينهما حتى ذاع صيته في الشعر الحكمي والعرفاني، فمن ثمّ استقى معظم آرائه وأفكاره الحكمية من الينابيع الدينية والإسلامية البحتة. يعتبر السنائي من رواد العرفان والزهد في الأدب الفارسي وإن سبقه متقدموه كالمولوي والطارفي في هذا المجال، مع أنّه من أهمّ الكبار في هذا المضمار خاصة في القصيدة والنسيب (شفيعي كدكني، 1380، 24).

الأساليب الإنشائية

استخدم الشعراء الزهاد ألواناً مختلفة ومتضاربة من الظواهر الأسلوبية للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم المكنونة، فاتخذوا هذه الظواهر أداة للإفصاح عمّا خامرهم من الدخائل والهواجس الدفينة كالشعور بالقلق والحيرة والإنابة والحسرة وتلك المواقف والأحاسيس التي تتلاءم هذه النزعة الفكرية. فاتخذوا هذه الأساليب البيانية بمثابة كؤوس دهاق أفرغوا فيها ما انتابهم من المشاعر والهجوم من أجل تخفيفها والحدّ من مضاضتها. ومن هذا المنطلق نراهم يكثر من توظيف هذه الظواهر من أمر واستفهام وتمنّ ونهي.

إنّ من أهمّ الأسباب والحوافز التي ساقت الشعراء الزهاد مساق توظيف الأساليب الإنشائية الطليبية بدل غير الطليبية هو أنّ الإنشاء الطليبي «كثير الاعتبارات وتتوارد عليه المعاني التي تجعله من الأساليب الغنية ذات العطاء والتأثير» (أبوموسي، السابق، 192)، لأنّ الإنشاء الطليبي يمكّن الشاعر أن يعبر عن هواجسه بشكل انفعالي، فمن ثمّ نجد أنّ الشعراء في معظم الأحيان يصورون أنفسهم في فضاءات مليئة بحالات شعورية خاصة لا يستطيعون أو لا يريدون الخروج منها، ويعبرون عن تلك المواقف تارة في إطار الأمر، والنهي، وتارة أخرى في قالب التمني، وهنا امتلأت الصدور والمشاعر بالأحوال المتضاربة التي تتلائم وطبيعة الموضوع الوارد.

أسلوب الأمر والنهي

المراد بالأمر عند البلاغيين ومنهم الخطيب القزويني هو «صيغة موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة» (الخطيب القزويني، 1971م، 241) والمراد بالنهي هو طلب كفّ الفعل ويتفق الأمر والنهي في أنّ «كل واحد منهما لا فيه من اعتبار الاستعلاء، وأنهما جميعاً يتعلقان بالغير، لأنّ كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر ويختلفان في أنّ الأمر دالّ على الطلب والنهي دالّ على المنع، وأنّ الأمر لا بدّ فيه من إرادة مأمورة، وأنّ النهي لا بدّ فيه من كراهية منهيّة» (العلوي، 1980م، 286 - 285).

لقد أكثر الشعراء الزهاد من ترداد أسلوب الأمر والنهي في شعرهما لما يشتملان عليه من الأغراض التي تناسب الشعر الزهدي كالحثّ والتحريض والمنع وإسداء النصح والموعظة وهذا مما يلائم ومجاور الزهد الفكرية. اتخذ الشعراء أسلوب الأمر والنهي للتعبير عن القيم الخلقية النبيلة التي تتعرض أحياناً من هفوات الشياطين ومباهج الدنيا ومغرياتها مما يسبب الإبتعاد عن جادة الصواب والأمن. فالذي لا شكّ فيه أنّ الشعر الزهدي أخذ على عاتقه بثّ المثل الدينية والإسلامية وإحالة الفطرة البشرية المطهرة إلى رشدتها وصوابها الذي فطرت عليها وبعدها عن الموبقات والمهلكات.

لقد شاع استخدام هذين الأسلوبين في شعر الإبيري والسنائي اللذين أخذوا على عاتقهما مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما لهما من دور هامّ في تربية الأجيال والتأثير في

ثمَّ يقبل المخاطب هذه الفكرة أحسن قبول، لأنَّ في الكلام ما يثير إقناعاً وتوضيحاً للفكرة التي رمى إليها الشاعر.

لقد وظف السنائي أسلوباً ألوحي الأمر والنهي للتعبير عن المحاور والموضوعات الزهدية لترسيخ فكرته وإقناع المتلقي وتوضيح ما يدعو إليه من الموعظة وإسداء النصح حتى لا يغترَّ المخاطب بما يتمتع من نعمة الدنيا الزائلة.

ومن أمثلة قوله في الحديث عن فناء الدنيا وعدم الافتنان بها:

دل مننه برجهان بي معني
كه ثبات ي ندادد ا ين دن ي
(السنائي، 1383، 82)

اي نياموخته ادب زابابوان
ادب آموز ز ين پس از ملوان
(نفسه، 90)

حرص راسر برزن به تيغ وفا
بخل را پ ي كن از صفا ي رضا
از چون آتش است و تن چو حطب
ز آتش و ن ي موافقت مطلب
(نفسه، 93)

دل از ا ين چرخ و گردشش بردار
پا ي را سر بس ي كند بردار
(نفسه، 95)

أي: لا تثق بالدنيا، لأنها لا تستقر على حالة. يا من لم يقبل النصح من الأيوين، فتعلم بعد ذلك من حدثان الدهر. لا تقبل على الحرص والبخل واطردهما. فإنَّ الحرص كالنار والجسم كالحطب، لا توافق بين النار والقصب. لا تعتمد على الدهر، فإنه قضى عن كثير من الأنام.

يتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أنَّها زخرت بالعديد من أساليب النهي والأمر التي أراد الشاعر من خلالها تقديم النصح للمتلقي في إطار التحلي بالعديد من المكارم الأخلاقية والدينية والتي حثَّ عليها الدين القويم. فجاء بأسلوب الأمر في قوله (أترك - تعلم) والنهي (لا تعتمد - لا توافق) للتعبير عن معاني النصح والحثِّ للتأثير في إسداء النصح والموعظة. واستمدَّ معاني الأمر والنهي من مخزونه الفكري والديني ليجد قبولاً لفكرة القارئ وتطبيقاً لسلوكه حتى يجعل السامع يتقبل الفكرة و يترجمها في الحياة.

أسلوب الاستفهام

كما يتضح من مصطلح الاستفهام أنَّ السائل يطلب به كشف المجهول أو إرادة المطلوب، أو إزالة اللبس، فمن ثمَّ يتوقع من المخاطب الإجابة عن السؤال المطروح حسب ما يرمي إليه.

إذا أمعنا النظر في مصطلح الاستفهام نجد أنَّه يطلب الجواب واتفق البلاغيون على هذا النوع من الاستفهام بالاستفهام الحقيقي الذي يخالف الاستفهام المجازي. فالذي لا شكَّ فيه أنَّ

تعديل وإصلاح المنحرفين من خلال الأمر بكل ما ينحدر من الثوابت الدينية والمبادئ الإسلامية. قد خرج الأمر والنهي في شعرهما الزهدي عن أصلهما ليحملا دلالات وأغراضاً بلاغية انسجمت مع طبيعة الموضوع المطروح و يعتبر حديثهما عن نبذ الدنيا وملهياتها من أكثر الموضوعات التي طرقت، لما لهذا الموضوع من دور عظيم وأثر عميق في خدمة ظاهرة الزهد التي قامت على أنَّ الدنيا ليس لها بقاء ودوام وجبلت على عدم الاستقرار والغرور. لذلك أكثرنا من توظيف أسلوب الأمر والنهي في طرحهما لهذه القضية، لانسجامها مع طبيعة الموضوع. ومن النماذج الشعرية التي تناولت هذا الموضوع قول الإلبيري:

ونزهاوا الأنفس عن منزل
نازله مستوفز للظعن
يا عجباً من غفلتي بعد أن
ناداني الشيب الأ فارحلن
وأدرك الفائت من قبل أن
يفجأك الموت فلا تنظرن
(الإلب يري، 1991م، 117 - 116)

فلا تثق بالغنى فافقه ال
فقر، وصرف الزمان ذو
كف ي ين يل الكفاف منه غنى
عنه فكن فيه غير محتفل
(نفسه، 138).

لقد عمد الشاعر في هذه المقطوعة إلى توظيف أسلوب الأمر والنهي، فجاء أسلوب الأمر (فارحلن - أدرك - نزهاوا - كن) وأسلوب النهي (لا تثق) لتحمل معنى النصح والإرشاد خاصة أنَّ هذين الأسلوبين ينسجمان مع غرض الشاعر الزاهد الذي ير يد فيه الإفصاح عن قبول الفكرة لدى المتلقي دون أيِّ غموض ولا تعقيد. فجاء بهذا الأسلوب بغية تحريض السادر واللاهي على ترك المغريات ونبذ الملذات والتوجه إلى التزود من صالح الأعمال والتمسك بالشعائر الدينية التي بها تصفو الحياة في الدارين.

الأمر الذي لا يدع لنا مجالاً للشك هو أنَّ الشاعر عبر في هذه المقطوعة عن حنكته وما ذاق طوال الحياة من مرَّ وحلو وهذا هو مخزونه الثقافي والفكري. فيستنتج من هذه التجربة الذاتية أنَّ الدنيا لا تستحق بذل الجهود المستميتة وإنهاك النفوس من أجل تكمير المال، ونراه في البيت الرابع يمرر هذه الفكرة للملاهيين وراء الملذات والمباهج بأسلوب يشتمل على الحثِّ على الاقتناع بالنزول اليسير من المال وحسن التصرف في ذلك ونهي الغافلين والساديين عن الانهماك في الشره والاستزادة. ومن هذا المنطلق، استطاع أن يعبر عن موقفه تجاه أحد المحاور الرئيسية لفكرة الزهد وأفصح عن تجربته العميقة، فالدنيا زائلة والرحيل عنها محتوم لا مناص منه. كشف أسلوب الأمر والنهي في هذه المقطوعة عن عدم الاغترار بالدنيا والافتنان بنعيمها الزائل. فأضفى النصح والموعظة على الكلام أقوى تأثيراً في السامع أو القارئ، ومن

ونبذ الملذات والمباهج و يدفعه نحو التزوّد للحياة الخالدة. وجّه الشاعر هنا كلامه نحو السادرين والغافلين الذين انهمكوا في نعيم الدنيا الزائل وأراد تنبيههم لتقلبات الدهر ونوائبه، فمن ثمّ أكثر من ترداد «كم» الخبرية وهذا ينم عن ترسيخ الفكرة لدى الشاعر وإيمانه بها.

كذلك أتى الشاعر في البيت بـ «حتى متى»، ومن الواضح أنّه لا يريد السؤال عن الزمان، بل أراد استبطاء الغافلين والسادرين في العودة إلى الانتباه والرشد ابتغاء ترك الملهيات والملذات والتوجه إلى الطاعة، فجاءت «حتى» مسبوقه بـ «متى» للتعبير عن استغراق الاستفهام طوال الأزمنة المتتالية للاستعداد ومواجهة الملهمات والمصائب في الأزمنة المقبلة.

لقد وظف الإليري الاستفهام «أين» في موضوعاته الزهدية، وهذه الأداة لم تستخدم للتعبير عن معناها الأصلي والتي يطلب بها تعيين المكان فحسب، وإنما تخرج عن هذا المعنى لتحمل العديد من الدلالات البلاغية التي يحددها السياق وطبيعة الموضوع.

اهتمّ السنائي بأسلوب الاستفهام وتارة خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ليبدل على تلك المعاني التي تلائم موضوع الزهد. ومن الأمثلة قوله:

جِه كَنِي سِرْكَذَشْت طَرَارِي
سِرْكَذَشْت أَجَلِ بَشَنُو بَارِي
تَا بَغُو يَدِ جُكُونِه سَاوَمِ جَاهِ
تَا بَغُو يَدِ جُكُونِه سَوَزَمِ شَاهِ

(السنائي، السابق، 91)

خَسِرَوَانِ رَا جُكُونِه كَرْدَمِ مَسْتِ
قَصْرِ شَاهَانِ جُكُونِه كَرْدَمِ پَسْتِ

(نفسه، 92)

زِينِ هُوسَهَا چِرَا نَغَرْدِي دُورِ
چِنْدِ دَارْدِ جِهَانِ تَرَا مَغْرُورِ

(نفسه، 109)

غَرْدِ هَزَلِ وَ عِبْتِ چِرَا غَرْدِي
عَمْرِ خُودِ دَرِ عِبْتِ هَبَا كَرْدِي

(نفسه، 111)

أي: إستمع قصة السارق (الموت) ليشرح لك كيف يقضي على الأعمار و يهدم القصور العالية. ويقص عليك كيف جعلت الملوك سكارى وما هم بسكارى. لماذا لا تبتعد عن الهوى وكيف جعلتك الدنيا سكران. لا تقبل على العبث والفسق، لأنّه يجعل العمر هباء منبثاً.

يتضح لنا من خلال هذه القطعة أنّ الجمل الاستفهامية خرجت عن معناها الأصلي لتحمل تلك المعاني التي تنسجم مع موضوع الزهد، وتعليل ذلك أنّ «شعر الزهد غنيّ بالنظريات الأخلاقية والتوجيهات السلوكية، فلذا لزم في صياغة النظرية أن تكون مبنية على كثرة التجارب المتعلقة بها، وصحة جميع عناصرها والإكثار من ضرب الأمثال وذكر الحكم، ... بل إنّ

الاستفهام بنوعيه يمكن المبدع ليوسّع دائرته ووظيفته التعبيرية ليربط به معاني كثيرة تجعله أكثر خصوصية للدلالة على إحساسه بالأشياء، وكيفية رؤيته لها» (أبو حميدة، 2007م، 201).

يخرج الاستفهام الحقيقي في معظم الأحيان عن معناه الأصلي ليحمل معاني مختلفة أخرى مما يقتضيها السياق والمقام دون الاعتماد على الحروف والأدوات المألوفة. ومن البلاغيين من ذهب إلى أنّ أدوات الاستفهام يمكن أن تحتوي معاني عدّة لا تفهم من اللفظ، فعلى سبيل المثال تدل حروف جمّة على معنى الاستبطاء في البلاغة التقليدية كـ «كم»، «متى»، «أين»، «وأنّي»، مع العلم بأنّ هناك فوارق دلالية دقيقة بين كل منها، وذلك لأنّ طبيعة أدوات الاستفهام قابلة لاحتواء كثير من المعاني عن طر يق هذه الحركة الموضوعية، بل قابلة لاحتواء معنى أحرف أخرى (عبدالمطلب، 1995م، 170).

لقد تردّد أسلوب الاستفهام في شعر الإليري والسنائي بشكل واضح وجليّ وربما يعود السبب إلى اضطراب الأوضاع السياسية وانحدار في القيم الخلقية والشعور بالظلم والضياع والدأب في البحث عن سبيل النجاة، فلذلك انهالت انفجارات تساؤلية متعددة من أجل تعميق وتعزيز المبادئ والقيم حيث ورد الاستفهام بأدواته المتنوعة في الشعر الزهدي لدى هذين الشعارين، ومن الأمثلة من ذلك قول الإليري:

فَكَمِ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّي
مَتَّي لَاتَرَعُوي عَنْهَا وَحَتَّي؟

(الإليري، السابق، 24)

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا وَمَا
ذَخَرُوهُ مِنْ ذَهَبِ الْمَتَاعِ الذَّاهِبِ

(نفسه، 133)

وَكَمِ مِنْ أَخِي ثَقَّةٌ قَدْ لَحَدَتْ
فَلَيْلَهُ مَا غَابَتْهُ اللَّجُودُ
وَكَمِ مِنْ شَقِيٍّ يُوَارِي التُّرَابُ
وَكَمِ مِنْ سَعِيدٍ يُوَارِي الصُّعُودُ

(نفسه، 135)

يتضح من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر لم يأت بـ «كم» للتعبير عن العدد وإحصاء الذين ترجلوا عن صهوة الحياة طوال القرون والعصور الماضية، بل ذكرها لينم عن حقيقة مسلمة لا ريب فيها وهي أنّ جميع الوري لا بد أن يردوا مورد الموت و ينهلوا منه ترسيخاً لفكرته التي أراد إيصالها إلى ذهن المتلقي. هذه القاعدة من الثوابت الدينية وهي حتمية الموت والفناء التي تسري في جميع فئات الناس من الملوك والجبابة.

من هنا استخدم «كم» للتعبير عن عدد كثير لا يحصى للكشف عن معنى الاعتبار وإسداء النصح والصحوة من الغفلة والانطواء على النفس والتفكير بما تبقى من زمن الحياة واغتنامها. وتتسم هذه الفكرة الزهدية بالحويوية والصدق. لقد حاول الشاعر هنا أن يعبر عن معنى الكثير بين أبناء آدم الذين يصيبهم سهام الموت ولا يستطيعون الهروب منها وهذا مما يسوق المتلقي مساق الاعتبار

يَا أَهْلَ الْغَافِلِ عَنِ نَفْسِهِ
وَ يَكْ أَفْقَ مِنْ سِنَةِ الْغَافِلِ
(نفسه، 67)

لقد وظف الشاعر في هذه المقطوعة أسلوب النداء للتعبير عن التنبيه والتحفيز للاعتبار واغتنام الفرص المواتية زمن الشباب ونبذ الغفلة والنسيان من خلال التزوّد بصالح الأعمال. أتبع الشاعر أسلوب النداء بأسلوب الأمر (أفق) للإفصاح عن التحذير واليقظة ليضفي على شعره مزيداً من التأكيد ابتغاء جذب انتباه المتلقي لقبول الفكرة المطلوبة. يتضح من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر ضمّن كلامه أسلوب النداء لتنبيه المخاطب وإيقاظه من غفلته المتמادية ليخلق هذا النداء في نفسه تأثيراً قوياً يسوقه مساق نيل المطلوب ليزداد رصيده من الحسنات من خلال الحث على كل ما يديني من الجنة والفوز بالآخرة و يبعد من النار.

الأمر الذي لا شك فيه أنّ الشاعر خاطب نفسه في هذه القطعة ليزجرها عن الغفلة والسعي وراء الملذات واجتناب الكبائر والحث على الاستعداد للرحيل عن دار الغفلة.

لقد عمد الشاعر من خلال أسلوب النداء إلى تصوير مدى فداحة السلوك الخاطيء بغية زحزحة المخاطب عن الرذائل والكبائر وهذا مما يزيد النداء تأثيراً وتعميقاً في كيان المتلقي من خلال إقلاعه عن الموبقات والمهالك وتحريضه على أخذ العبر والعظات.

لا ريب أنّ هذا الأسلوب يوافق طبيعة الشاعر وما جُبل عليه من الخوف والقلق إثر ما اقتترف في عنفوان الشباب من الآثام، فلما طعن في السنّ وأحسّ بفداحة الموقف وحلول الشيخوخة عبّر في أصدق صور عن الاستغفار والاسترحام، فجاء أسلوب النداء محققاً للغرض الذي رمى إليه الشاعر الزاهد.

لقد ورد أسلوب النداء في شعر السنائي وعبر الشاعر في تضاعيف المقطوعات عن هواجسه وخلجاته النفسية، لكنّ هذا الأسلوب لم يكن بارزاً كما تجلّى في شعر الإلبيري لما فيه من الدقائق عند الإلبيري، كما لاحظنا من قبل أنّ أسلوب الاستفهام عند السنائي أبرز وأدقّ بالنسبة إليه منه عند الإلبيري.

إذا دققنا النظر في أسلوب النداء عند السنائي نجد أنّ النداء في معظم مقطوعاته خرج عن معناه الأصلي ليحمل معاني مختلفة كالتعبير عن النصح والتنبيه وعدم الاغترار بالدنيا ونعيمها الزائل. واتخذ النداء أداة لإثبات فكرته وإقناع المتلقي لترسيخ هذه الموضوعات الزهدية في ذهنه. يقول في الحديث عن غرور الدنيا وتفاهتها ولزوم الإنابة وترك الهوى:

اي كه برچرخ ايمني زنهاري
تك يه برر آب كرده اي هشر دار
(السنائي، السابق، 94)

اي درين پست مانده همچون مست
شكري سوي جان و دل بفرست
(نفسه، 95)

هذه النظرية تتحول إلى قاعدة حين تكثر عناصرها الموافقة للحق والصواب وتقل عناصرها الموافقة للخطأ والباطل» (تيم، 1994م، 446).

يظهر لنا من خلال هذه الأبيات أنّ الاستفهام خرج عن معناه الأصلي للتعبير عما يخامر الشاعر من فكرة الموت وما أصاب الناس من الفناء والهلاك، فالموت لا يرحم شخصاً ولو كان ملكاً ذا جنود كثيرة وحصون محصنة للكشف عن عدم الثبات والاستقرار في الحياة الدنيا. أراد الشاعر أن يتخذ الأسلوب البياني أداة لحفز المخاطب أو السامع على ترك الملذات والمباهج ليسوقه مساق التوجه إلى الثوابت الدينية واجتناب الموبقات لتزيد الإنسان شأناً ورفعة. فأدى أسلوب الاستفهام هنا دوراً هاماً ومؤثراً في تعميق الفكرة في نفسية المخاطب مما يعكس أثراً إيجابياً على سلوكه الحياتي.

كشف الشاعر في البيت الرابع والخامس عن معنى التعجب والدهشة من السادر في الغي الذي أدرك حتمية الموت وأمن به مع أنّه يسلك العمر مسلك النسيان والتعامي ولا يكثر بما يصيبه في الأعوام المقبلة. فجاء هذا الأسلوب لينم عن معنى التنبيه والوعي والتزوّد بالصالحات ليوم الميعاد والتذكير به والكشف عن إساءة النصح والموعظة للسامع ليحرّضه على التدبّر والتأمّل فيما يؤدي حياته إلى الفناء والثبور، لأنّ ديدن الدنيا الزوال والفناء وليس الخلود والبقاء. وهذا الاستعمال المجازي للاستفهام يضفي على الشعر ضرباً من الإقناع والحيوية والتأثير الذي يتسبب عن جذب انتباه السامع وإثارة مشاعره الدفينة ليكشف عن المعنى من تلقاء نفسه.

أسلوب النداء

المراد من النداء «طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل أَدْعُو» (عتيق، 1974م، 114). يشتمل أسلوب النداء على المعنى الحقيقي والمجازي، فمن الحقيقي طلب إقبال المدعو على أمر ذي بال، ومن المعاني المجازية، التهويل، التعظيم، التنبيه، الإغراء، التحذير. اعتمد الشعراء الزهاد على نوع من لغة الحوار والخطاب التي تلاحم طبيعة الزهد، لأنّ النزعة الزهدية تنطوي على التنبيه والتحذير تجاه السلوكيات الإيجابية الناجمة عن الإفراط والتفريط والتجاهل. ويؤدي أسلوب النداء فيها دوراً بارزاً في جذب الانتباه والصحة تجاه الأمور التي تنجم عن الغفلة والنسيان من أجل اجتناب أبناء البشر المخاطر والمهالك خاصة فيما يمتّ بصلة إلى مصير الإنسان في الدارين ويؤهله للفوز بالحياة الخالدة الباقية. نهل الإلبيري من لطائف هذا الأسلوب ما شاء وأكثر من توظيفه، فمن أمثلة قوله في الحديث عن الاعتبار بالموت وعدم الافتنان بالدنيا:

فَ يَا لَهْفِي عَالِي طُولِ اغْتِرَابِي
وَ يَا وَ يَحْيِي مِنَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ
(الإلبيري، السابق، 37)

وَ أَغْفَلْتُ أَمْرِي بَعْدَهُمْ مُنْتَبِطاً
فَ يَا عَجْباً مِنِّي وَمِنْ غَفْلَاتِي
(نفسه، 61)

فَلَمَّا يَتَّكَ - ثُمَّ لَ يَتَّكَ - مَا فَهَمْتَا
(الإلبيري، السابق، 26 - 27)

وَكَمْ طَلَعَتْ مِنْهَا الشُّمُوسُ وَكَمْ مَشَتْ
عَلَى الْأَرْضِ أَقْمَارًا وَكُـوَاعِبُ
عَجَبَتْ لِمَا أُدْرِي بِهَا مِنْ عَجِيبَةٍ
فَ يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ تِلْكَ الْعَجَائِبُ؟
(نفسه، 87)

يَاعَامِرَ الدُّنْيَا لَيْسَ كُنْهَا وَمَا
هِيَ بِالَّتِي يَبْقِي بِهَا سَكَانَ
لَعَمْرِي لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي
وَلَمْ أَغْضِبْكَ فِي ظَلَمِ اللَّيَالِي
(نفسه، 139)

اتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أن هاجس الفناء وعدم الثبات في الحياة الدنيا وعاقبة المصير في تلك الحياة الباقية وما يزود الشاعر من صالح الأعمال في الدنيا من أهم الأمور التي شغلت باله. فجاء بأسلوب التمني ليعبر عن شدة اهتمام الإنسان بالترؤد من صالح الأعمال وعدم الاغترار بالدنيا وما فيها من النعم الزائلة ليقرب الإنسان من طريق الصواب والرشاد. وهو يتمنى لنفسه اجتناب المعاصي والذنوب في الحياة الدنيا، لكنه فاتته هذه الفرصة المؤاتية وأقبل في عنفوان الشباب على الملاهي والملذات. استخدم الشاعر أسلوب النداء في المقطوعة التي تحمل معنى التمني المشبع بدلالة الحسرة والأسى على ما فات، ومن ثم عبر عن خوفه من المصير في تلك الحياة الباقية إثر ما قدم في الحياة من الكبائر. فهو يتمني عدم الاغترار بالحياة والانكباب على الطاعة وسلوك الصراط المستقيم والإقلاع عن المغريات والملذات. تسيطر على الشاعر في هذه الأبيات نبرة الحزن والتحسر ويتذكر موقفاً رهيباً ينتظر كل إنسان وهو الموت، ويتمنى لنفسه أن يكون في تلك الدار من الفائزين والمفلحين. فجاء التمني بـ «ليت شعري» لأمر صعب العثور عليه، إذ كثيراً ما يحب الإنسان المستحيل و يطلبه، وهذا يدل على شدة قلق الشاعر وخوفه من مصيره بعد الموت. لذلك يتمنى أمراً لا يرجى حصوله. ونراه يكثر من ترداد التمني ليؤكد و يعمق هذه الأمنية في نفس المخاطب. ويرافق الاستفهام (أين) والقسم (لعمري) لتأكيد شدة التمني وفداحة الموقف ترسيخاً للفكرة لدى السامع أو القارئ.

إذا دققنا النظر في تضاعيف القصائد لدى السنائي نجد أن الشاعر استخدم أسلوب النداء للإفصاح عن تلك المشاعر والأحاسيس التي خامرتة والتي تلائم الاتجاه الزهدي، وخرج التمني كثيراً عن معناه الحقيقي ليحمل معاني مختلفة كالاسترحام والاستعطاف والحسرة على ما فاتته من العمر والطراوة والنضارة ابتغاء ذم الدنيا والتخوف من نوائبها وإسداء النصح والموعظة البحتة للسادرين في الغفلة.

ومن الأمثلة قوله:

هست ب يمار نفس و من چو طب يب
م ي كنم روز و شب ورا تترت يب

اي ز خود سـ ير گشته همچو امل
بشنو از مــــن ز روي پند و مثل
(نفسه، 174)

اي گزیده ره هوس بر هوش
سخننت ناله جرس در گوش
(نفسه، 186)

در نگر در من اي رف يق به مهر
سوي آن مرگ سرخ و زرد ي چهر
(نفسه، 197)

أي: ألا يا من اغترّ بالدهر احذر غدرة، فإنك اعتمدت على الماء. يا من اعتمد على الدنيا كالسكران، أقبل على الشكر والثناء. يا من أشبعت من الآمال والملذات استمع مني النصح والموعظة. يا من اختار الهوى بدل العقل، كلامك كالجرس في الأذن.

تجلى لنا من خلال هذه الأبيات أن الشاعر يريد أن يكشف عن خيانة الدنيا وغدورها وعدم استقرارها وثباتها، فلهذا يريد من المتلقي ألا يغترّ بها ونعيمها الزائل، فخرج النداء من معناه الأصلي - وإن كان في شكله الظاهر يميل إلى الدلالة الاصطلاحية وأثرها - للدلالة على النصح والتنبية والموعظة. وأسلوب النداء مما ينتج الإحساس بالقرب بين الشاعر والمتلقي، فهذا الأمر هو الذي جعله أفضل وسيلة لتقديم الموعظة الحسنة. وتكمن رغبة الشاعر في النداء وراءها غالباً فرغبه في التنبية والدعوة، وكان يوجّه النداء في معظم الأحيان إلى جميع أبناء البشر.

أسلوب التمني

يعتبر أسلوب التمني من الأساليب الإنشائية التي تطلب حصول شيء على سبيل اللين والرفق واتفق البلاغيون على أن التمني هو «طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله: إما لكونه مستحيلاً، والإنسان كثيراً ما يحب المستحيل و يطلبه، وإما لكونه ممكناً غير مطموح في نيله» (عتيق، السابق، 112).

إذا أجلنا النظر في طيات القصائد الزهدية نجد أن النداء لم يخرج عن معناه الأصلي على خلاف أسلوب الأمر والنهي، بل بقي على ما كان به من المعاني مرافقاً بالندامة والتحسر وهذا يتضح من خلال السياق الشعري. استخدم الشعراء الزهاد أسلوب التمني في شعرهم كثيراً لأنه يضاهر على الإفصاح عن الآمال النفسية والذاتية التي ترسخت في نفسية الشاعر وهذا مما يخلق عند المخاطب نتيجة إيجابية، إذ إن هذا الأسلوب يساعد على تعميق المشاعر والأحاسيس التي يبثها الشاعر الزاهد.

لقد وظّف الإلبيري هذا الأسلوب بشكل بارز خاصة وأنه من أكثر شعراء الزهد الذين دعوا إلى غرس القيم الخلقية والدينية في المجتمع الأندلسي، فهو يقول مستخدماً «ليت» و«ليت شعري» في قوله:

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٍ
وَلَا دُنْيَا بِزُخْرِهَا فَتَنَاتَا
وَإِنَّ أَلْقَاكَ فَهَمُّكَ فِي مَهَاوٍ

وَكَمْ وَعَدْتَنِي وَتَوْبَ وَكَمْ
وَمَا أَنْجَزْتَ وَعَدَهَا فِي الْمَتَابِ
وَكَمْ خَدَعْتَنِي عَلَيَّ أَنْنِي
بَصِيرٌ بِطَرِيقِ الْخَطَا وَالصَّوَابِ
(الإلبيري، السابق، 73)

لقد تحدث الشاعر عن مفاتن الدنيا وما جبلت عليها من الخيانة والغدر بأبناء البشر ووعودها كمزنة لا ماء فيها. عمد الشاعر في المقطوعة إلى تكرار «كم» الخبرية التي تدل على الكثرة ليصور تلك الحالة النفسية التي يعيشها بغية جذب انتباه المخاطب لغدر الدنيا وعدم استقرارها على حالة سوية، كما أن تكرار هذه الكلمة يؤدي إلى ازدياد الشعور بالرهبة والخوف لدى المخاطب وهذا من شأنه أن يعطي الكلام قوة وتأثيراً في السادر ليكفّه عن مغبة الافتنان والشغف بالدنيا وزخرفتها. فصار التكرار ذريعة من الذرائع السحرية «التي يلجأ إليها الشاعر والتي تعتمد على تأثير الكلمة المكررة في إحداث نتيجة معينة من العمل الشعري» (البطل، 1981م، 218)

لقد ورد التكرار في شعر السنائي لما فيه من الدلالات والمعاني التي تنم عن الحالة المسيطرة على نفسية الشاعر وهي حالة الخوف والندم والحسرة على ما مضى من عمره.

ومن أمثلة حديثه عن ما مضى من العمر ما يقول:

باز پس خود ن یا يد آنچه گذشت
درج اعمار تو زمان بنوشت
عمر کوته چو عمر مور و مگس
امل افزون ز عمر ده کرکس
(السنائي، السابق، 88)

أي: كل ما مضى من عمرك فلا يعود مرة أخرى و يقضي الدهر عليه. عمرك كعمر النمل والذباب رغم أن الآمال طويلة كعمر عشرة نسور.

عمد الشاعر في البيتين إلى توظيف التكرار ليعطي الكلام توكيداً وتعزيزاً لتعميق الفكرة التي أراد تثبيتها في ذهن المتلقي وهي التحريض على اغتنام الفرص السانحة من الحياة خاصة زمن الشباب الذي لا يعود أبداً. فجاء التكرار ههنا للقيام بمهمة إيحائية تضيف على الشعر قوة وتأثيراً و يتضافر على ترسيخ فكرة الشاعر والكشف عما يريد تثبيته لدى المخاطب. مع أن التكرار أعطى الشعر إيقاعاً موسيقياً يمكن الشاعر من التعبير عن أحاسيسه ومشاعره تجاه مختلف الموضوعات التي افترشت ذاكرته.

اعتبر الشاعر التكرار من أهم الذرائع في إنتاج الدلالة من خلال ترسيخ الفكرة المرادة في ذهن السامع أو القارئ لتكسب الكلام مزيداً من الحضور والتأكيد في نفسية المخاطب ابتغاء إصلاح السلوكيات وتعديلها في الحياة وأتبع التكرار بالتشبيه تعميقاً لفكرته لتحقيق المزيد من القبول لدى الآخرين. فقد أعطى التكرار النسيج الشعري مزيداً من التوكيد. استطاع الشاعر من خلال التكرار «أن يغني و يرفعه إلى مرتبة الأصالة، ذلك إن

گاه نهـ یش کنم من از شهوات
تا مگر باز ماند از لذات
(السنائي، السابق، 135)

در جهان خراب بی فریاد
کس ی گرفتار باد عشوه مباد
(نفسه، 316)

مگر از شرع چاره ای سازم
تا در آتش چو رو ی نگازم
(نفسه، 288)

أي: النفس كالمريض وأنا أداويها ليلاً ونهاراً. أحياناً أحذرُها من الملذات وأتمنى أن تهجرها. أتمنى ألا يفتن أحد بهذه الدنيا الخادعة. أتمسك بالدين متمنياً النجاة من النار.

كما يتضح من خلال هذه المقطوعة أن الشاعر استخدم أسلوب النداء للإفصاح عن النصيحة والموعظة مما يؤدي إلى ترسيخ الفكرة لدى المخاطب أو السامع و يمدّ الكلام بطاقات تعبيرية تضيف على الكلام مزيداً من الإقناع والقبول عند المتلقي. هذه الأبيات تنم عن تجربة الشاعر الذاتية وتكشف عن مخزونه الثقافي والفكري والحاجة الشعورية التي تعيشها ذات الشاعر الزاهد و يمثلها أحسن تمثيل في لوحات فنية متماسكة كأنه أراد من خلال الكلام أن يصبر النفس و يسليها بذكر ما مضى و انقضى من العمر.

6 - التكرار

تعد ظاهرة التكرار من أهم الظواهر الأسلوبية التي عالجها علماء البلاغة وعرفوها في صور مختلفة والمراد من التكرار «إعادة ذكر كلمة، أو عبارة بلفظها أو معناها في موضع آخر أو مواضع متعددة من نص أدبي واحد» (الس يد، 1996م، 212) . يظافر التكرار على تكوين إطار أسلوبى يسبب عن تكرار الألفاظ في صياغة متماسكة «حيث يأتي الدال بمعنى ثم يتردد في المرة الثانية مضافاً إليه هوامش مغايرة تجعله ثنائى الإنتاج بين المعنى الأول والثاني» (عبدالمطلب، 1997م، 105) ، فالتكرار يحتوي إمكانيات تعبيرية «تغني المعني و يرفعه إلى مرتبة الأصالة و يثري العاطفة و يرفع درجة تأثيرها، و يركز الإيقاع و يكتف حركة التردد الصوتي في القصيدة» (الملائكة، 1962، 263) . استخدم الشعراء هذه الظاهرة الأسلوبية لتضيف على النسيج الشعري ضرباً من الحسن والجمال والبهاء الذي يساعدهم على التعبير عن مكوناتهم وتحقيقها.

لقد برزت ظاهرة التكرار في شعر الإلبيري والسنائي من خلال إلحاحهما على القيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة قاصدين من ورائه غرس هذه القيم في نفوس المتلقين لتصبح سلوكاً عملياً في حياتهم. فتكرار الكلمة من أبسط حالات التكرار و يشتمل على تكرار وحدة لفظية واحدة أي كلمة واحدة، وشعر الزهد غني بهذا النوع من التكرار، لأنه جاء في معظم الأحيان ليعبر عن الحالة النفسية للشاعر. ومن أمثلة ذلك في شعر الإلبيري قوله:

فَكَمْ أَنْشَأَتْ مَزْنَةً لِلتُّقَى
وَعَادَتْ وَشِيكاً كَلِمَعِ السَّرَابِ

مشاعر المخاطب تجاه نبذ الدنيا ومغرياتها والكشف عن متاعها الزائف، فتوظيف التقابل بأنماطه المتضاربة» يمثل أسلوباً يكسر رتابة النصّ وجموده بإثارة حساسية القارئ ومفاجأته بما هو غير متوقع من ألفاظ وعبارات متضادة فيما بينها» (القصيري، 2006م، 146).

مما لا ريب فيه أنّ الشاعر أراد من استخدام الثنائيات المتضادة أن يقضي على الآمال المتجذرة في نفسية الإنسان تجاه الدنيا ونعيمها، فأتبعها بذكر الموت والشيخوخة وما ينتاب الإنسان من الفتور والعجز وقد سبّب هذا التقابل تجسيد الصراع المحتدم بين الحياة والموت مما يؤدي إلى اطمئنان المخاطب وتسكين خوفه والسير في طريق الصلاح والرشاد من خلال هذه الثنائيات التي تحاول الاجتناب من المكونات السلبية التي تتجلى أمام المتلقّي من نعيم الدنيا ومباهجها، فيعطي التقابل الكلام توضيحاً وتثبيتاً وتوكيداً.

لقد صور الشاعر من خلال هذه الثنائيات المتضادة صورة الصراع الذي يعانیه وذلك لما في التقابل من القيمة المعنوية والدلالية ضمن النسيج الشعري، إذ «تشكل بنية التضادّ خلطة في بنية اللغة التي تصبح قائمة على المخالفة والمصادمة، ولكن هذه الخلطة كفيلة بإيقاظ القارئ واستنفاره» (ربابعة، 2000م، 150). حاول الشاعر من جرّاء التقابل أن يكشف عن الاختلاف بين موقفه وتلك المواقف التي تحدث من خلال الثنائيات المتضادة لإقناع المتلقّي وإسداء النصح والموعظة التي هي أن الدنيا تافهة خادعة لا تجدر بالحبّ والشغف وأوقظ أحاسيسه ومشاعره الدفينة وبرهن على ازدياد الدنيا وتعظيم الحياة الخالدة الباقية.

استخدم السنائي هذه الثنائيات المتناقضة كأداة لبثّ المثل الدينية والأخلاقية النبيلة، فتتمحور الثنائيات حول كشف القناع عن الصورة الحقيقية للحياة الدنيا وما تتسم بالخيانة والغدر وعدم الثبات لتكون منبّهة للمخاطب حتى يرشده إلى طريق الصواب والرشاد، نظراً لما تحقّقه الثنائيات المتناقضة من تفاعل في إنتاج الدلالة.

ومن أمثلة قوله في التعبير عن شمول الموت وعموميته:

سو ي مرگ است خلق را آهنگ
دم زدن گام و روز و شب فرسنگ
از ثري تا به اوج چرخ اثار
همه م يرنده - اند دون و ام ير

(السنائي، السابق، 91)

أي: إنّ مرور الليل والنهار يؤدي إلى هلاك الناس وثبورهم. الأنام من الصغير والكبير كلّهم يموتون أينما كانوا، في حضيض الثرى أم في ذروة الأثير.

يتكئ الشاعر في البيتين السابقين على بنية التقابل ذات القيمة المعنوية والنفسية بغية الإفصاح عن زوال الدنيا وغورها وإسداء النصح من الاستعداد للرحيل عنها والتزوّد من صالح الأعمال وشمول الموت لأبناء البشر من خلال توظيف الثنائيات المتضادة (الليل والنهار - الثرى والأثير - الكبير والصغير)

استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة، و يستخدمه في موضعه، وإلا فليس أيسر من أن يتحوّل هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة» (الملائكة، السابق، 263).

لقد عمد الشاعر من خلال استخدام التكرار إلى توجيه النصح للمخاطب بحالة الدنيا وهي عدم الاستقرار وعدم الافتنان بزهوها ونعيمها الزائل والتكرار ينم عن التحذير والتنبية وينسجم هنا مع ما أراده الشاعر من الغاية التي يسعى وراءها وهي الإفصاح عن عدم إطالة الآمال في الحياة الدنيا والزهد فيها والإقبال نحو الغاية الخالدة الباقية.

7 - التقابل

المراد من التقابل هو أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمات تخالف إحداها الأخرى في المعنى وهذه الظاهرة الأسلوبية تعطي الكلام صوراً جمالية وتضفي عليه قيمة معنوية، وهي من أهم وسائل الإقناع والاحتجاج لما يجمع بين الإقناع اللفظي وبهاء المتعة اللفظية.

لقد كثر توظيف هذه الظاهرة الأسلوبية لدى الشعراء الزهاد لما في التقابل من دور هامّ وبارز في تعميق الفكرة وترسيخها لدى المخاطب. استطاع الإلبيري والسنائي أن يستغلّا بنية التقابل من أجل تثبيت الغرض وتسليط الضوء عليه وساعدتهما هذه البنية على إبراز «القيم الخلقية في أسمى صورها، وأكمل معانيها، فالقيمة الخلقية في هذا الوضع التعبيري، تبتدئ من حيث ضدها أو ما يناقضها» (تيم، السابق، 492). لا ريب أنّ أهمّ الثنائية المحورية في التقابل هو الدهر الخالد والإنسان الفاني وهذه الثنائية تشكل لحمة النسيج الفكري وسداه.

ومن الأمثلة الواردة في شعر الإلبيري في حديثه عن الشيخوخة وخداع الدنيا والابتعاد عن الاستزادة:

ودع المطارف والمطيّ وأهله
واقنع بأطمار ولبس نعال

(الإلبيري، السابق، 46)

وأر ي شبابي ظاعناً في عسكر
عني وشيبي وأفداً بعساكر

(نفسه، 92)

ومن الغين هجر دار خلود
ويقاع، ووصل دار الفناء

(نفسه، 98)

تزخر هذه الأبيات بصور متضادة ترسم الصراع بين الدلالات المختلفة التي تتمحور حول فكرة واحدة تلائم ما تدور حوله فكرة الزهد وميول الشاعر الزاهد. تتمثل الفكرة الرئيسية في حقيقة الصراع المحتدم والمواجهة بين الخلود والفناء وحلول المشيب وذهاب الصبا والشباب وتمجيد الكفاف. يتجلى من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر قام بالمقابلة بين الثنائيات المتضادة (المطارف والأطمار - الشباب والشيب - الظاعن والوافد - الهجر والوصل - دار خلود ودار فناء) للتعبير عن تقنية التقابل لإثارة

أُكسبت هذه الصور النسيج الشعري - فضلاً عن الدلالات - بنية إيقاعية جديدة بما تشتمل على نغمات إيقاعية صاعدة تسوق المخاطب مساق المشاركة مع المعطيات الجديدة، فجاءت هذه الصور متناسقة متألّفة مع المعاني والدلالات لتصير أداة لتحريك النفوس وإثارة المشاعر وخلق الاستجابة بما تشتمل عليه من دلالات معنوية ونفسية.

استطاع الإلبيري والسنائي أن يوحدًا بين المشاعر والأحاسيس وما شاهدها في المجتمع من واقع الحياة المؤلم، فكان الواقع من أهمّ الروافد التي ساعدتهما على بناء الظواهر الأسلوبية ليعبرًا من هذا الطريق عن حالاتهما النفسية والروحية أو المواقف الانفعالية، وهذه العواطف والأحاسيس تعمّق استجابة المتلقين للفكرة التي رمى إليها الشاعر الزاهد. وهذا مما جعل الشاعر الزاهد يتحرّك في تشكيل البنية وفق المثيرات النفسية التي تغذي الواقع. اتصل معظم الظواهر الأسلوبية لديهما بالتجارب الشعرية وحاولا أن يعطيا الكلام المغزى الدنيوي والتربوي ليحمل الشعر دلالات نفسية انفعالية وتمحور معظم الظواهر حول القيم التعبيرية لتجاربهما مما أعطى الصور المستخدمة مزيداً من قوّة التصوير والتأكيد، فصارت قريبة من المتلقّي الذي حرّضه الشاعر على المتابعة والامتثال.

اتّسمت الظواهر الأسلوبية لدّيهما بالبساطة والوضوح والابتعاد عن الغموض والتعقيد، فلا تحتاج إلى إعمال الفكر وهذا مما يسهّل فهمها على جمهور الناس بغية إقناعهم والتأثير فيهم.

للتعبير عن عمق التباعد والبون الشاسع بين الدنيا والآخرة وبين الخلود والفناء، فكل نعمة لا بدّ زائلة وكل بناء يؤول أمره إلى الهدم والخراب وكلّ حيّ يتعرّض للموت.

اتخذ الشاعر هذه الثنائيات المتضادة ذريعة لإسداء النصح والموعظة والدعوة إلى ما هو خير وصلاح واجتناب ما يؤدّي إلى الزوال والفناء وحاول من خلالها توجيه الغافلين والسادرين بأن يبتعدوا عن الموبقات والمهلكات ويقبلوا على الصالحات والحسنات. هذه الثنائيات أدت دوراً هاماً في استجلاء الغرض وترسيخه في ذهن المتلقّي مما يسلكه مسلك امتثال المثل الأخلاقية والثوابت الدينية النبيلة، فقام التقابل بدور هام في الرقيّ القيمي والخلقي للمخاطب.

يستنتج من خلال ما سبق من بنية التقابل في شعر الإلبيري والسنائي أنّ استخدامهما لهذه الثنائيات المتناقضة ناتج عن التناقضات التي كان يعيشها الشاعران في المجتمع، فرافق البذخ التعبّ والحرمان، الغنى والفقْر المدقع والقصور العالية المشيدة ظواهر التقشّف، وهذه الصور المتناقضة في المجتمع جعلت الشاعرين يوظفان بنية التقابل تعبيراً عن مواقفهما المتمردة والرافضة.

النتيجة

يستنتج من خلال دراسة الظواهر الأسلوبية في شعر الإلبيري والسنائي أنّهما استطاعا أن يعبرا في أحسن صورة عن هواجسهما ومكنوناتهما في إطار ينسجم مع طبيعة الموضوع وهذا ناتج عن التقارب والتألف بين الشاعر الزاهد ومواقفه الزهدية. وافترشت هذه الظواهر مساحة واسعة من شعرهما لما تحمل من معاني النصح والترغيب والترهيب والموعظة التي تستهدف تحقيق الآمال المنشودة لدى المتلقين.

لاحظنا فيما سبق من الكلام أنّ الظواهر الأسلوبية في معظم الأحيان خرجت عن معناها الأصلي لتحمل المعاني الثانوية من أجل جذب انتباه السامع أو القارئ بغية الاحتمال بالفضائل والمثل الأخلاقية والدينية النبيلة ليسلك المخاطب مسلك الصواب والرشد وتوجيهه نحو امتثال الأوامر والنواهي التي يقصد بها إثارة النفوس لنبذ الدنيا وممارسة المثل السامية. استخدم هذان الشاعران الصور الشعرية ليضفا على شعرهما ضرباً من التأثير والتأكيد والقيم المعنوية ويمدّ النسيج الشعري بطاقات تعبيرية جديدة. ومن ثمّ اتّسم الشعر الزهدي لديهما بصبغة الموعظة والحكمة من خلال بثّ التجارب الذاتية التي اكتسبها طيلة الحياة وزخر شعرهما الزهدي بالروعة والطلاوة والبهاء.

استخدم الإلبيري والسنائي هذه الظواهر لتحريض الآخرين على التحلّي بالقيم الدينية والخلقية وترسيخها في نفوس الناس لتصير هذه المثل من الأصول المترسّبة لديهم لترشدهم نحو الصلاح والصواب. وهذا مما يتلاحم وطبيعة الموضوع الذي يسعى إليه الشاعر الزاهد.

المصادر والمراجع

1. أبو حميدة، محمد صلاح. الخطاب الشعري عند محمود درويش (دراسة أسلوبية). ط1، غزّة: مطبعة مقداد، 2000م.
 2. أبو حميدة، صلاح. البلاغة والأسلوبية. ط1، غزّة: دار المقداد للطباعة، 2007م.
 3. أبو موسى، محمد. دلالات التراكيب. ط2، القاهرة: مكتبة وهبة، 1980م.
 4. ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. مج2، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1990م.
 5. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. لسان العرب. القاهرة: مكتبة دار المعارف، 1979م.
 6. الإبيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود، ديوان الإبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت - لبنان، دار الفكر المعاصر.
 7. البطل، علي. الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري. ط2، بيروت: دار الأندلس للطباعة، 1981م.
 8. تيم، محمد. مفهوم الأخلاق في الشعر العربي. رسالة الدكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 1994م.
 9. الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني. ط3، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1992م.
 10. الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة. مج1، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1971م.
 11. الدروي، أحمد. دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 1998م.
 12. ربابعة، موسى. جماليات الأسلوب والتلقي. ط1، الأردن: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، 2000م.
 13. السيد، شفيق. البحث البلاغي عند العرب. ط2، القاهرة: دار الفكر العربي، 1996م.
 14. الشايب، أحمد. الأسلوب. ط7، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1976م.
 15. عتيق، عبدالعزيز، علم البيان. بيروت: دار النهضة العربية، 1974م.
 16. العلوي، يحيى بن حمزة. الطراز. تحقيق جماعة من العلماء، مج3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1980م.
 17. عبد المطلب، محمد، جدلية الأفراد والتركيب. ط1، لونغمان: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1995م.
 18. بناء الأسلوب في شعر الحداد. ط1، القاهرة: دار المعارف، 1993م.
 19. هكذا تكلم النص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.
20. الفيروز آبادي، أحمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم. القاموس المحيط، مج1، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م.
 21. الملائكة، نازك. قضايا الشعر العربي المعاصر. ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1962م.
 22. سناثي، ابوالمجد مجدود بن آدم، حديقة الحقيقة شريعة الطريقة، تحقيق مدرس رضوي، تهران، دانشگاه تهران، 1383.
 23. زرين كوب، عبد الحسين، باكاروان حله، تهران، نشر ن ي، 1378.
 24. شفيعي كدكني، محمد رضا، تاز يانه هاي سلوك، چاپ سوم، تهران، آگاه، 1380.